

تلاوة القرآن وتدبر معانيه



القرآن الكريم في شهر رمضان هو خير جليس وأطيب أنيس للإنسان في كل زمان، وخير ما يتقرَّب به الصائم إلى ربه في رمضان؛ ولهذا يقبل المسلمون على قراءة القرآن في رمضان إقبالاً لم يعرف عنهم في بقية الشهور. فهناك علاقة حميمة بين القرآن وهذا الشهر بالذات ولو نطق رمضان لاعتترف بفضل القرآن الكريم عليه. نقرأ في قوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ) (البقرة/ 185)، ففي الآية إشارة واضحة إلى أن رمضان نال حظَّه من التكريم الإلهي لكونه طرفاً لأجل الأحداث وأعظمها وميقاتاً مباركاً لنزول القرآن هدىً للناس. وإنَّما تكون عظمة الزمن وقيمته بعظمة ما يؤرخ له من جلائل الأعمال؛ ولهذا فضَّل القرآن رمضان وكرَّمه فجعله ميقاتاً لفريضة الصيام، كما كان ميقاتاً لوحى الأَظْم إلى رسوله الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا ما يفهم من أمر الله جلَّ في علاه (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) (البقرة/ 186)، فجاء الأمر بصيام الشهر مرتباً على قوله سبحانه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) أي مَنْ شهد منكم رمضان فليصمه لأنَّه الشهر الذي أنزل فيه القرآن، فنحن نصوم الزمن الذي فضَّلَه الله على سائر الشهور من أجل القرآن الكريم، وتنحنى أصلابنا في رمضان بالذات على كتاب الله تقرُّباً إلى الله، واعترافاً بعظمة هذا الكتاب في حياة أُمَّة لولاه لصلَّات وأعرضت عن ربِّها وتخلَّت.

وفي رمضان نحمل مصاحفنا في غدونا ورواحنا لتطمئن قلوبنا بذكر الله في عالم ترتعش فيه القلوب المسكونة بالهواجس والوساوس (ألا بذكر الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28). من فضل الله علينا أنه يَسَّرَ القرآن للمؤمنين والمؤمنات قراءة واستماعاً وترتيلًا وحفظاً (ولَقَدْ يَسَّرَنا القرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (القمر/ 17)، والكتاب الوحيد الذي يتعبد المسلم بتلاوته هو القرآن الكريم. فبينما مَنْ يقرؤه في رمضان تعبُّداً ولا يستطيع أن يتدبَّر معانيه فله بكل حرف يتلوه حسنات، وبينما مَنْ يتعبد بتلاوته ويتدبَّر معانيه وتلك رتبة أعلى ومنزلة أرقى لمن هيا الله له الأسباب. فالأُمَّة في حاجة إلى معاشة هذا الكتاب معاشة تأمُّل وتدبُّر وإعتبار، كما يقول الحق سبحانه مخاطباً نبيِّه (صلى الله عليه وآله وسلم): (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ) (ص/ 29). والحق جلَّ في علاه ينكر على الذين أغلقوا قلوبهم دون كتاب الله فلم يتدبَّروه ولم يحاولوا أن يفهموه، فيقول سبحانه: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ القرآنَ أمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد/ 24). جميل أن نحرص على حفظ القرآن، وأجمل من هذا أن نفهم ونتدبَّر وفوق كلِّ هذا أن نعمل بمقتضاه. يقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في موضوع القرآن في خطبته: (ومَنْ تلا فيه آية من القرآن كان له أجر مَنْ ختم القرآن في غيره من الشهور). الضمير لمن؟ لشهر رمضان المبارك، لشهر القرآن، لشهر الله، لشهر الصيام، لشهر الطاعة، لشهر التوجُّه إلى الله، لشهر التوبة، لشهر الاستغفار، لشهر الإنابة، لشهر الرحمة، لشهر البركة، لشهر السعادة. (ومَنْ تلا فيه آية من القرآن كان له أجر مَنْ ختم القرآن في غيره من الشهور) لماذا؟ لأنَّ الإمدادات الإلهية تكون في هذا الشهر مضاعفة.. فبمقدار ما نستلهم من هذه الإمدادات الإلهية، بقراءة كتاب الله العظيم، نحصل على الأجوبة المطلوبة.. ولهذا تكون قراءة آية في هذا الشهر المبارك مع وجود الإمدادات الإلهية ومع استلهاً منا لهذه الإمدادات الإلهية، يكون لنا من الأجر لهذه الآية كختم القرآن في بقية الشهور. فالإمدادات الإلهية في هذا الشهر هي الأكثر، ولا بدَّ أن يكون التوجُّه مدًّا هو الأكثر للاستفادة من هذه الإمدادات الإلهية، حتى يكون الجزاء، كما قال النبي (صلى الله عليه وآله وسلم): (ومَنْ تلا فيه آية من القرآن كان له أجر مَنْ ختم القرآن في غيره من الشهور). تلا.. تلا.. لم يقل مَنْ قرأ آية، لم يقل مَنْ نظرَ إلى آية، لم يقل مَنْ تلفظ آية، وإنما قال: (مَنْ تلا..). والتلاوة تعني القراءة بإمعان.. تعني القراءة بتفاعل.. تعني القراءة بتفهِّم.. تعني القراءة بإندماج.. تعني قراءة تفحُّصية.. تعني قراءة يلتفت القارئ إلى ما يريد له (سبحانه وتعالى) من هذه الكلمة ومن هذه الجملة ومن هذه الآية.. تعني الالتفات إلى أمر الله سبحانه وتعالى.. تعني الالتفات إلى نهي الله سبحانه وتعالى.. تعني الالتفات إلى الفكرة التي تعطيها الآية.. تعني الالتفات إلى الخُلُق الذي تعطيه الآية.. تعني الالتفات إلى الأدب الذي تعطيه الآية المباركة. هذه التلاوة ولم يقل قراءة، لماذا؟ لأنَّ هناك: (مَنْ يقرأ القرآن وهو يلعنه)، ولهذا لم يقل اقرأ القرآن، وإنما قال: (تلا..). وهو يقصد ما يقول، وهو يلتفت إلى كلِّ حرف يقول، فهو كما قال تعالى في سورة النجم الآية 4-3: (وَمَا يَنْطِقُ

عَنِ الْهَوَىٰ * إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ). وكلامه (صلى الله عليه وآله وسلم) ليس فيه زيادة ولا نقيصة.. فأدب به ربّه، وأحسن تأديبه.. خلّقه القرآن.. كلامه القرآن. هذا جانب.. الجانب الآخر الذي تعنيه كلمة (التلاوة)، هو: التفاعل الروحي.. ويعني التفاعل الروحي: الخشوع مع القرآن، الخشوع مع القرآن، هو محاولة لأن نُصوّر القرآن في عقولنا وفي أرواحنا وفي أفئدتنا وفي ضمائرنا وفي أحاسيسنا.. نعيش القرآن بحيث نكون خاشعين له، خاضعين متذللين حتى يحدث في نفوسنا ما لا بدّ أن يحدث، حتى يصل هذه النفس، حتى يربي هذه النفس، حتى يذهب عنها الدرن والسُّوء والمرض والانحراف والرّين، ماذا يقول أمير المؤمنين (عليه السلام): «إنّ النفوس لتصدأ فاجلوها بقراءة القرآن». حتى يكون القرآن جلاءً لقلوبنا، ودواءً لقلوبنا، وشفاءً لقلوبنا.. فهنا لا بدّ أن تجمع التلاوة بين الجانب الفكري العقائدي النظري، الإيمان بالله، الإيمان بالقيم الإلهية والأوامر الإلهية، والجانب العملي التطبيقي السلوكي الأخلاقي العبادي، هذا أوّلاً. ثانياً: الجانب الروحي الذي عبّرنا عنه بالخشوع مع القرآن والخشوع مع القرآن، والتذلّل مع القرآن وتصوير الجنّة وتصوير النار وتصوير الجنّة وتصوير النار والتفاعل مع التصور والاندماج مع هذا التصور، أليس من صفات المؤمنين عندما يقرأون القرآن: (فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها ومنعمون وهم والنار كمن قدر آها فهم فيها معذبون).